الفصل الثاني

معركة صفين

(٣٧ هـ)

معركة صفين (٣٧ هـ)

أولاً : تسلسل الأحداث التي قبل المعركة :

١ - أم حبيبة بنت أبي سفيان ترسل النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام :

لما قتل عثمان ﷺ أرسلت أم المؤمنين ، أم حبيبة بنت أبي سفيان إلى أهل عثمان ، أرسلوا إلي بثياب عثمان التي قتل فيها ، فبعثوا إليها بقميصه مضرجاً بالدم ، وبخصلة الشعر التي نتفت من لحيته ، ثم دعت النعمان بن بشير ، فبعثته إلى معاوية ، فمضى بذلك وبكتابها[١] ، وجاء في رواية: خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بالدماء ، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين دافعت عنه بيدها [٢] ، وكانت نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوج عثمان كلبية شامية [٣] ، فورد النعمان على معاوية بالشام ، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس ، وعلق الأصابع في كم القميص يرفع تارة ويوضع تارة ، والناس يتباكون حوله ، وحث بعضهم بعضاً على الأخذ بثأره [٤] ، وجاء شرحبيل بن السمط الكندي وقال لمعاوية ، كان عثمان خليفتنا ، فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا [٥] .

وآلى رجال الشام أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم [٦] ، وكان ذلك ما يريده معاوية ، فقد كانت الصورة التي نقلها النعمان بن بشير إلى أهل الشام بشعة بشعة ، مقتل الخليفة ، سيوفاً مسلطة من الغوغاء على رقاب الناس ، بيت المال منتهكاً مسلوباً ، وأصابع نائلة مقطوعة ، فهاجت النفوس والعواطف ، واهتزت المشاعر ، وتأثرت بها القلوب ، وذرفت منها العيون ، ولا غرابة بعد هذا إطلاقاً أن نرى إصرار معاوية ومن معه من أهل الشام بالإصرار على المطالبة بدم عثمان ، وتسليم القتلة للقصاص قبل البيعة ، وهل نتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسيد المسلمين من حاقدين محتلين متآمرين ، ولا يتماوج العالم الإسلامي من أقصاه

---

(١) تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين: ص (٣٥٩) .
(٢) البداية والنهاية (٧ / ٥٣٩) .
(٣) تاريخ الدعوة الإسلامية ، محمد جميل: ص (٣٩٨) .
(٤) البداية والنهاية (٧ / ٥٣٩) سندها ضعيف .
(٥) الأنساب (٤ / ٤١٨) ، تاريخ الدعوة الإسلامية: ص (٣٩٨) .
(٦) تاريخ الطبري (٥ / ٦٠٠) .

للقصاص من أصحاب هذه الجريمة البشعة؟! [١].

٢ - دوافع معاوية في عدم البيعة:

كان معاوية ﷺ والياً على الشام في عهد عمر وعثمان، رضي الله عنهما، ولما تولى علي الخلافة أراد عزله وتولية عبد الله بن عمر، فاعتذر ابن عمر، فأرسل علي سهل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام (وادي القرى) حتى عاد من حيث جاء، إذ لقيته خيل لمعاوية عليها حبيب بن مسلمة الفهري، فقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيهلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع [٢].

لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة ورأوا أن يقتص علي ﷺ من قتلة عثمان ثم يدخلون البيعة [٣]، وقالوا: لا نبايع من يؤوي القتلة[٤]، وتخوفوا على أنفسهم من قتلة عثمان الذين كانوا في جيش علي، فرأوا أن البيعة لعلي لا تجب عليهم، وأنهم إذا قاتلوا على ذلك كانوا مظلومين، قالوا: لأن عثمان قتل مظلوماً باتفاق المسلمين، وقتلته في عسكر علي، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا وضاع دم عثمان، وكان معاوية ﷺ يرى أن عليه مسئولية الانتصار لعثمان والقود من قاتليه فهو ولي دمه، والله يقول: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣]، لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان وأنه قتل مظلوماً على يد سفهاء منافقين لم يقدروا الدم الحرام، إذ سفكوه في الشهر الحرام في البلد الحرام، فثار الناس، واستنكروا وعلت الأصوات - وكان منهم عدد من أصحاب رسول الله ﷺ فقام أحدهم - واسمه مرة بن كعب - فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما تكلمت، وذكر الفتن فقربها، فمر رجل متقنع في ثوب، فقال: هذا يومئذ على الهدى، فقمت إليه، فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: نعم [٥].

وهناك حديث آخر له تأثيره في طلب معاوية القود من قتلة عثمان وكان منشطاً ودافعاً قوياً للتصميم على تحقيق الهدف، وهو: عن النعمان بن بشير عن عائشة، رضي الله عنها،

---

(١) معاوية بن أبي سفيان للغضبان: ص (١٧٨ - ١٨٣).
(٢) تاريخ الطبري (٥ / ٤٦٦).
(٣) البداية والنهاية (٧ / ١٢٩).
(٤) العواصم من القواصم: ص (١٦٢).
(٥) صحيح سنن ابن ماجة (١ / ٢٤٠).

قالت: أرسل رسول الله ﷺ ، فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه فقال: «**يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني**» ثلاثاً ، فقلت لها: يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيته والله ما ذكرته ، قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان فلم يرض بالذي أخبرته حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إلي به ، فكتبت إليه به كتاباً [١] .

لقد كان الحرص الشديد على تنفيذ حكم الله في القتلة السبب الرئيسي في رفض أهل الشام بزعامة معاوية بن أبي سفيان بيعة علي بن أبي طالب ، ورأوا أن تقديم حكم القصاص مقدم على البيعة ، وليس لأطماع معاوية في ولاية الشام ، أو طلبه ما ليس له بحق ، إذ كان يدرك إدراكاً تاماً أن هذا الأمر في بقية الستة من أهل الشورى ، وأن علياً أفضل منه وأولى بالأمر منه [٢] ، وقد انعقدت البيعة بإجماع الصحابة بالمدينة ، وكان اجتهاد معاوية يخالف الصواب .

٣ - معاوية يرد على أمير المؤمنين علي رضي الله عنهما :

بعث علي ﷺ كتباً كثيرة إلى معاوية فلم يرد عليه بجوابها ، وتكرر ذلك مراراً إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر ، ثم بعث معاوية طوماراً [٣] ، مع رجل ، فدخل به على علي فقال له علي: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القود [٤] ، كلهم موتور [٥] تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان ، وهو على منبر دمشق ، فقال علي: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان . ثم خرج رسول معاوية من بين يدي علي فهم به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله ، فما أفلت إلا بعد جهد [٦] .

٤ - تجهيز أمير المؤمنين علي لغزو الشام واعتراض الحسن على ذلك :

بعد وصول رد معاوية لأمير المؤمنين علي ، عزم الخليفة على قتال أهل الشام ، كتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم ، وإلى أبي موسى بالكوفة ، وبعث إلى عثمان ابن حنيف بذلك ، وخطب الناس فحثهم على ذلك ، وعزم على التجهز ، وخرج من

---

(١) مسند أحمد رقم (٢٤٠٤٥) ، حديث صحيح .
(٢) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد علي: ص (١١٢) .
(٣) الطومار: الصحيفة .
(٤) القود: القاتل بالقتيل .
(٥) الموتور: صاحب الثأر .
(٦) البداية والنهاية (٧ / ٢٤٠) .

المدينة ، واستخلف عليها قثم بن العباس ، وهو عازم على أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج من أمره ولم يبايعه مع الناس ، وجاء إليه ابنه الحسن بن علي فقال: يا أبه دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين ، ووقوع الاختلاف بينهم ، فلم يقبل منه ذلك ، بل صمم على القتال ، ورتب الجيش ، فدفع اللواء إلى محمد ابن الحنفية ، وجعل ابن العباس على الميمنة ، وعمر بن أبي سلمة على الميسرة ، وقيل: جعل على الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ، وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمو بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة ، واستخلف على المدينة قثم بن العباس ، ولم يبق شيء في المدينة قاصداً الشام ، حتى جاءه ما شغله عن ذلك [١] ، وقد تم تفصيل ذلك من خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة معركة الجمل .

٥ - بعد معركة الجمل أرسل أمير المؤمنين علىّ جرير بن عبد الله إلى معاوية :

ذكر أن المدة بين خلافة أمير المؤمنين على إلى فتنة السبئية الثانية أو ما يسمى البصرة أو معركة الجمل ، خمسة أشهر وواحد وعشرون يوماً ، وبين دخوله الكوفة شهر ، وبين ذلك وخروجه إلى صفين ستة أشهر [٢] ، وروي شهران أو ثلاثة [٣] .

وقد كان دخول أمير المؤمنين الكوفة يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين ، فقيل له: انزل بالقصر الأبيض ، فقال: لا ، إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله ، فأنا أكره ذلك ، فنزل في الرحبة وصلى بالجامع الأعظم ركعتين ثم خطب الناس فحثهم على الخير ، ونهاهم عن الشر ، ومدح أهل الكوفة في خطبته هذه ، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله وكان على همذان من زمان عثمان ، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان يأمرهما أن يأخذا البيعة له على من هما لك ثم يقبلان إليه ، ففعلا ذلك ، فلما أراد على أن يبعث إلى معاوية ﷺ يدعوه إلى بيعته ، قال جرير بن عبد الله البجلي: أنا أذهب يا أمير المؤمنين ، فإن بيني وبينه وداً ، فآخذ لك البيعة منه ، فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير المؤمنين ، فإني أخشى أن يكون هواه معه . فقال علي: دعه . فبعثه وكتب معه كتاباً إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ويخبره بما كان في موقعة الجمل ، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ، فلما انتهى إليه جرير بن عبد الله ، أعطاه الكتاب وطلب معاوية عمرو بن العاص ورءوس أهل الشام فاستشارهم ، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان ، أو أن يسلم إليهم قتلة عثمان ، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى

---

(١) البداية والنهاية (٧ / ٢٤٠ ، ٢٤١) .

(٢) مروج الذهب (٢ / ٣٦٠) .

(٣) التاريخ الصغير للبخاري (١ // ١٠٠٣٢) .

يقتلهم عن آخرهم، فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا، فقال الأشتر، ألم أنهك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً؟ فلو كنت بعثتني لما فتح معاوية باباً إلا أغلقته. فقال له جرير: لو كنت ثم لقتلوك بدم عثمان، فقال الأشتر: والله لو بعثني لم يعيني جواب معاوية، ولأعجلته عن الفكرة، ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة، فقام جرير مغضباً فأقام بقرقيساء، وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وقيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه [١]، وهكذا كان الأشتر سبباً في إبعاد الصحابي جرير بن عبد الله الذي كان والياً على قرقيساء وعلى غيرها ورأساً في قبيلته بجيلة، ويضطره إلى مفارقة أمير المؤمنين علي. وهذا الصحابي جرير بن عبد الله البجلي قال: ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي وقال ﷺ «**يطلع عليكم من هذا الباب رجل من خير ذي يمن، على وجهه مسحة ملك**» [٢].

٦ - مسيرة أمير المؤمنين إلى الشام:

استعد أمير المؤمنين علي لغزو الشام، فبعث يستنفر الناس [٣]، وجهز جيشاً ضخماً اختلفت الروايات في تقديره، وكلها روايات ضعيفة [٤] إلا رواية واحدة حسنة الإسناد ذكرت أنه سار في خمسين ألفاً [٥].

وكان مكان تجمع جند أمير المؤمنين بالنخيلة [٦]، وهو على ميلين من الكوفة آنذاك فتوافدت عليه القبائل من شتى إقليم العراق [٧]، واستعمل أمير المؤمنين علي أبا مسعود الأنصاري، وبعث من النخيلة زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف مقاتل وبعث شريح بن هانئ في أربعة آلاف ثم خرج علي ﷺ بجيشه إلى المدائن (بغداد) فانضم إليه فيها من المقاتلة وولى عليها سعد بن مسعود الثقفي، ووجه منها طليعة في ثلاثة آلاف إلى الموصل [٨]، وسلك ﷺ طريق الجزيرة الرئيسي على شط الفرات الشرقي حتى بلغ قرب

---

(١) البداية والنهاية (٧ / ٢٦٥).

(٢) مسلم رقم (٢٤٧٥).

(٣) الإصابة (١ / ١٢٣، ١٢٤) نقلاً عن الحاكم بسند حسن.

(٤) من قال: مائة وخمسون ألفاً أو يزيدون، البداية والنهاية (٧ / ٢٦٠)، مائة وعشرون ألفاً: المعرفة والتاريخ (٣ / ١٣) بسند منقطع، وقدر بتسعين ألفاً: تارخ خليفة بن خياط: ص (١٩٣).

(٥) تاريخ خليفة: ص (١٩٣) بسند حسن.

(٦) موقع قرب الكوفة من جهة الشام، معجم البلدان (٥ / ٢٧٨).

(٧) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد: ص (١٨٨).

(٨) تاريخ الطبري (٥ / ٦٠٣) بسند حسن إلى عوانة منقطعاً.

قرقيسياء [١]، فأتته الأخبار بأن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين، فتقدم علي إلى الرقة [٢]، وعبر منها الفرات غرباً ونزل على صفين [٣].

٧ - خروج معاوية إلى صفين:

كان معاوية جاداً في مطاردة قتلة عثمان ﷺ، فقد استطاع أن يترصد بجماعة ممن غزوا المدينة من المصريين أثناء عودتهم وقتلهم، ومنهم أبو عمرو بن بديل الخزاعي [٤]، ثم كانت له أيد في مصر وشيعة في أهل 'خربتا' تطالب بدم عثمان ﷺ، وقد استطاعت هذه الفرقة إيقاع الهزيمة بمحمد بن أبي حذيفة في عدة مواجهات عام ٣٦ هـ، كما استطاع أيضاً أن يوقع برؤوس مدبري ومخططي غزو المدينة من المصريين، مثل عبد الرحمن بن عديسي وكنانة بن بشر، ومحمد بن حذيفة فحبسهم في فلسطين، وذلك في الفترة التي سبقت خروجه إلى صفين، ثم قتلهم في شهر ذي الحجة عام ٣٦ هـ، وعندما علم معاوية بتحرك جيش العراق جمع مستشاريه من أعيان أهل الشام، وخطب فيهم وقال: إن علياً نهد إليكم في أهل العراق . . . فقال ذو الكلاع الحميري: عليك أمرأى وعلينا امفعال [٥] [٦].

وكان أهل الشام قد بايعوا معاوية على الطلب بدم عثمان ﷺ، والقتال [٧]، وقد قام عمرو بن العاص ﷺ، بتجهيز الجيش وعقد الألوية، وقام في الجيش خطيباً يحرضهم، فقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلوا حدهم، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلي قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار في شرذمة قليلة، ومنهم من قتل خليفتكم، فالله الله في حقكم أن تضيعوه وفي دمعكم أن تبطلوه [٨].

وسار معاوية في جيش ضخم، اختلفت الروايات في تقديره، وكلها روايات منقطعة أسانيدها، وهي عين الروايات التي قدرت جيش علي ﷺ فقدر بمائة ألف وعشرين ألفاً [٩]،

---

(١) قرقيسياء: بلد يقع على نهر الخابور عند مصبه في الفرات - معجم البلدان (٤ / ٣٢٨).
(٢) الرقة: مدينة مشهورة - في سوريا اليوم - على نهر الفرات الشرقي، معجم البلدان (٣ / ١٥٣).
(٣) تاريخ الطبري (٥ / ٦٠٤).
(٤) المحن لأبي العرب التميمي: ص (١٢٤)، خلافة علي، عبد الحميد: ص (١٩١).
(٥) خلافة علي، عبد الحميد: ص (١٩١).
(٦) لغة حمير في إبدال لام (أل) التعريف ميماً، أي: عليك الرأي وعلينا الفعال.
(٧) أنساب الأشراف (٢ / ٥٢) بسنده منقطع، خلافة علي: ص (١٩٢).
(٨) تاريخ الطبري (٥ / ٦٠١) بسند منقطع.
(٩) خلافة علي بن أبي طالب: ص (١٩٤)، المعرفة والتاريخ (٣ / ٣١٣).

وقدر بسبعين ألف مقاتل، وقدر بأكثر من ذلك بكثير [١]، إلا أن الأقرب للصواب أنهم ستون ألف مقاتل، فهي وإن كانت منقطعة الإسناد إلا أن راويها صفوان بن عمرو السكسي، حمصي من أهل الشام ولد عام (٧٢ هـ) وهو ثبت ثقة، وقد أدرك خلقاً ممن شهد صفين، كما يتبين من دراسة ترجمته [٢]، والإسناد إليه صحيح [٣]، وكان قادة جيش معاوية على النحو التالي: عمرو بن العاص على خيول أهل الشام كلها، والضحاك بن قيس على رجالة الناس كلهم، وذو الكلاع الحميري على ميمنة الجيش، وحبيب بن مسلمة على ميسرة الجيش، وأبو الأعور السلمي على المقدمة، هؤلاء هم من القادة الكبار وتحت كل قائد من هؤلاء قادة وزعوا حسب القبائل، وكان هذا الترتيب عند مسيرهم إلى صفين، ولكن أثناء الحرب تغير بعض القادة وظهر قادة آخرون مما اقتضته الظروف، ولعل هذا يكون السبب في اختلاف أسماء القادة في بعض المصادر [٤].

وبعث معاوية أبا الأعور السلمي مقدمة للجيش، وكان خط سيرهم إلى الشمال الشرقي من دمشق، ولما بلغ صفين أسفل الفرات، عسكر في سهل فسيح، إلى جانب شريعة في الفرات، ليس في ذلك المكان شريعة غيرها، وجعلها في حيزه [٥].

٨ - القتال على الماء:

وصل جيش علي ﷺ إلى صفين، حيث عسكر معاوية، ولم يجد موضعاً فسيحاً سهلاً يكفي الجيش، فعسكر في موضع وعر نوعاً ما، إذ أغلب الأرض صخور ذات كدي وأكمات [٦]، فوجئ جيش العراق بمنع معاوية عنهم الماء، فهرع البعض إلى علي ﷺ يشكو إليه هذا الأمر، فأرسل علي إلى الأشعث بن قيس فخرج في ألفين ودارت أول معركة بين الفريقين انتصر فيها الأشعث واستولى على الماء [٧]، إلا أنه قد وردت رواية تنفي وقوع القتال في أصله مفادها أن الأشعث بن قيس جاء إلى معاوية فقال: الله الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ ! هبوا أنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذرارى؟ إن الله يقول: ﴿ وَإِن

(١) خلافة علي: ص (١٩٤)، تاريخ خليفة: ص (١٩٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٦ / ٣٨٠).
(٣) خلافة علي بن أبي طالب: ص (١٩٤).
(٤) امتداد العرب في صدر الإسلام صالح العلي: ص (٧٣) و خلافة علي: ص (١٩٤).
(٥) صفين: نصر بن مزاحم: ص (١٦٠، ١٦١).
(٦) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد: ص (١٩٦)، النصر المبين.
(٧) مصنف ابن أبي شيبة (١٥ / ٢٤) بسند حسن

﴿طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] قال معاوية: فما تريد؟ قالوا: خلوا بيننا وبين الماء. فقال لأبي الأعور: خل بين إخواننا وبين الماء [١].

وقد كان القتال على الماء في أول يوم توجها فيه في بداية شهر ذي الحجة فاتحة شر على الطرفين المسلمين، إذ استمر القتال بينهما متواصلاً طوال هذا الشهر، وكان القتال على شكل كتائب صغيرة فكان علي ﷺ يخرج من جيشه كتيبة صغيرة يؤمر عليها أميراً، فتقتتلان مرة واحدة في اليوم، في الغداة أو العشي، وفي بعض الأحيان تقتتلان مرتين في اليوم، وكان أغلب من يخرج من أمراء الكتائب في جيش علي الأشتر، وحجر بن عدي، وشبث بن ربعي، وخالد بن المعتمر ومعقل بن يسار الرياحي، ومن جيش معاوية أغلب من يخرج، حبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو الأعور السلمي، وشرحبيل بن السمط، وقد تجنبوا القتال بكامل الجيش خشية الهلاك والاستئصال، وأملاً في وقوع صلح بين الطرفين، تصان به الأرواح والدماء [٢].

٩ - الموادعة بينهما ومحاولات الصلح:

ما إن دخل شهر المحرم، حتى بادر الفريقان إلى الموادعة والهدنة طمعاً في صلح يحفظ دماء المسلمين، فاستغلوا هذا الشهر في المراسلات بينهم، ولكن المعلومات عن مراسلات هذه الفترة - شهر المحرم - وردت من طرق ضعيفة [٣]، مشهورة، إلا أن ضعفها لا ينفي وجودها، كان البادئ بالمراسلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ فأرسل بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي إلى معاوية ﷺ، يدعوه كما دعاه من قبل للدخول في الجماعة والمبايعة، فرد عليه معاوية برده السابق المعروف، بتسليم قتلة عثمان أو القود منهم أولاً، ثم يدخل في البيعة.

وقد تبين لنا موقف علي من هذه القضية [٤]، كما أن قراء الفريقين، قد عسكروا في ناحية من صفين، وهم عدد كبير، قد قاموا بمحاولات للصلح بينهما، فلم تنجح تلك

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢ / ٤١)، مرويات أبي مخنف: ص (٢٩٦).

(٢) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد ص (١٩٧، ١٩٨)، البداية والنهاية (٧ / ٢٦٦)، تاريخ الطبري (٥ / ٦١٤).

(٣) تاريخ الطبري (٥ / ٦١٣)، خلافة علي بن أبي طالب: ص (١٩٩).

(٤) تاريخ الطبري (٥ / ٦١٢، ٦١٣)، خلافة علي بن أبي طالب: ص (١٩).

المحاولات لالتزام كل فريق منهما برأيه وموقفه [١] ، وقد حاول اثنان من الصحابة ، وهما أبو الدرداء ، وأبو أمامة ، رضي الله عنهما ، الصلح بين الفريقين ، فلم تنجح مهمتهما أيضاً لنفس الأسباب السابقة - فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما أمرهما [٢] ، وكذلك حضر مسروق بن الأجدع - أحد كبار التابعين - فوعظ وخوف ولم يقاتل [٣] .

وقد انتقد ابن كثير التفصيلات الطويلة التي جاءت في روايات أبي مخنف ونصر بن مزاحم ، بخصوص المراسلات بين الطرفين فقال: " . . . . . ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلاً جرى بينهم وبين علي ، وفي صحة ذلك عنهم وعنه نظر ، فإن في مطاري ذلك الكلام من علي ما ينتقص فيه معاوية وأباه ، وأنهما إنما دخلا في الإسلام ولم يزالا في تردد فيه ، وغير ذلك وأنه قال في ذلك: لا أقول إن عثمان قتل مظلوماً ولا ظالماً ، . . . . . وهذا عندي لا يصح من علي ﷺ " [٤] ، وموقف علي ﷺ من قتل عثمان واضح قد بينته في كتابي عن عثمان بن عفان ﷺ وفي هذا الكتاب .

ثانياً : نشوب القتال :

عادت الحرب على ما كانت عليه في شهر ذي الحجة من قتال الكتائب والفرق والمبارزات الفردية ، خشية الالتحام الكلي إلى أن مضى الأسبوع الأول منه ، وكان عدد الوقعات الحربية بين الفريقين إلى هذا التاريخ أكثر من سبعين وقعة ، وذكر أنها تسعون [٥] .

إلا أن علياً أعلن في جيشه أن غداً الأربعاء سيكون الالتحام الكلي لجميع الجيش ، ثم نبذ معاوية يخبره بذلك [٦] ، فثار الناس في تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدونها ، وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال ممن فل سلاحه وهو يحرض الناس على الاستبسال في القتال [٧] ، وبات جميع الجيشين في مشاورات وتنظيم للقيادات والألوية .

---

(١) المصدر نفسه (٥ / ٦١٤) .
(٢) البداية والنهاية (٧ / ٢٧٠) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٤ / ٦٧) بدون إسناد .
(٤) البداية والنهاية (٧ / ٢٦٩) .
(٥) الأنباء بتواريخ الخلفاء: ص (٥٩) ، صفين: ص (٢٠٢) ، شذرات الذهب (١ / ٤٥) .
(٦) البداية والنهاية (٧ / ٢٧٣) .
(٧) سنن سعيد بن منصور (٢ / ٢٤٠) ضعيف .

١ - اليوم الأول:

أصبح الجيشان في يوم الأربعاء قد نظمت صفوفهم ووزعوا حسب التوزيع المتبع في المعارك الكبرى: قلب وميمنة وميسرة، فكان جيش علي ﷺ على النحو التالي [١]: علي بن أبي طالب على القلب، وعبد الله بن عباس على الميسرة، وعمار بن ياسر على الرجالة، ومحمد بن الحنفية، حامل الراية، وهاشم بن عتبة (المرقال) حامل اللواء، والأشعث بن قيس على الميمنة، وأما جيش الشام، فمعاوية في كتيبة الشهباء أصحاب البيض والدروع على تل مرتفع، وهو أمير الجيش، وعمرو بن العاص قائد خيل الشام كلها، وذو الكلاع الحميري على الميمنة على أهل اليمن، وحبيب بن مسلمة الفهري على الميسرة على مضر، والمخارق بن الصباح الكلاعي حامل اللواء [٢]، وتقابلت الجيوش الإسلامية ومن كثرتها قد سدت الأفق، ويقول كعب بن جعيل التغلبي أحد شعراء العرب [٣] وذلك عندما رأى الناس في ليلة الأربعاء وقد ثبتوا إلى نبالهم وسيوفهم يصلحونها استعداداً لهذا اليوم:

أصبحت الأمة في أمر عجب ::: والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب ::: إن غداً تهلك أعلام العرب[٤]

وتذكر بعض الروايات الضعيفة أن علياً خطب في جيشه، وحرضهم على الصبر والإقدام والإكثار من ذكر الله [٥] وتذكر أيضاً أن عمر بن العاص قد استعرض جيشه، وأمرهم بتسوية الصفوف وإقامتها [٦]، وهذه الروايات لا يوجد مانع من الأخذ بها، لأن كل قائد يحرض جيشه ويحمسه ويهتم بكل ما يؤدي به إلى النصر، والتحم الجيشان في قتال عنيف، استمر محتدماً إلى غروب الشمس لا يتوقف إلا لأداء الصلاة، ويصلي كل فريق في معسكره وبينهما جثث القتلى في الميدان تفصل بينهما وسأل أحد أفراد جيش علي ﷺ حين انصرافه من الصلاة، فقال: ما تقول في قتلانا وقتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: من قتل منا

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: ص (١٩٣) بسند حسن إلى شاهد عيان.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط: ص (١٩٣) بسند حسن إلى شاهد عيان.
(٣) شاعر تغلب في عصره، مخضرم، شهد صفين مع معاوية، وهو شاعر معاوية بن أبي سفيان، وأهل الشام، والأعلام للزركلي (٦ / ١٨٠).
(٤) البداية والنهاية (٧ / ٢٧٣)، تاريخ الطبري (٥ / ٢٦٢).
(٥) تاريخ الطبري (٥ / ٦٢٢) من طريق أبي مخنف
(٦) الطبقات (٤ / ٢٥٥) من طريق الواقدي.

ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة [١] ، وقد صبر بعضهم على بعض فلم يغلب أحد أحداً ، ولم ير مولياً حتى انتهى ذلك اليوم ، وفي المساء خرج علي ﷺ إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام ، فدعا ربه قائلاً: اللهم اغفر لي ولهم [٢] .

٢ - اليوم الثاني :

في يوم الخميس تذكر الروايات أن علياً ﷺ قد غلس بصلاة الفجر واستعد للهجوم ، وغير بعض القيادات ، فوضع عبد الله بن بديل الخزاعي على الميمنة بدلاً من الأشعث بن قيس الكندي الذي تحول إلى الميسرة [٣] ، وزحف الفريقان نحو بعضهما واشتبكوا في قتال عنيف أشد من سابقه ، وبدأ أهل العراق في التقدم وأظهروا تفوقاً على أهل الشام ، واستطاع عبد الله بن بديل أن يكسر ميسرة معاوية ، وعليها حبيب بن مسلمة ، ويتقدم باتجاه كتيبة معاوية (الشهباء) ، وأظهر شجاعة وحماساً منقطع النظير ، وصاحب هذا التقدم الجزئي ، تقدم عام لجيش العراق ، حتى إن معاوية قد حدثته نفسه بترك ميدان القتال ، إلا أنه صبر وتمثل بقول الشاعر:

أبـــت لي عفـــتي وأبى بلائـــي ::: وأخـــذي الحمـــد بالـــثمن الـــربيح
وإكراهـــي علـــى المكـــروه نفسي ::: وضـــربي هامـــة الـــبطل المـــشيح
وقـــولي كلمـــا جـــشأت وجاشت ::: مكانـــك تحمـــدي أو تـــستريحي [٤]

واستحث كتيبته الشهباء ، واستطاعوا قتل عبد الله بن بديل ، فأخذ مكانه في قيادة الميمنة الأشتر ، وتماسك أهل الشام وبايع بعضهم على الموت ، وكروا مرة أخرى بشدة وعزيمة وقتل عدد من أبرزهم ذو الكلاع ، وحوشب وعبيد الله بن الخطاب ﷺ ، وانقلب الأمر لجيش الشام ، وأظهر تقدماً ، وبدأ جيش العراق في التراجع ، واستحر القتل في أهل العراق وكثرت الجراحات ، ولما رأى علي جيشه في تراجع ، أخذ يناديهم ويحمسهم ، وقاتل قتالاً شديداً واتجه إلى القلب حيث ربيعة فثارت فيه الحمية وبايعوا أميرهم خالد بن المعتمر على الموت وكانوا أهل قتال [٥] .

---

(١) سنن سعيد بن منصور (٢ / ٣٤٤ ، ٣٤٥) ، بسند ضعيف .
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٥ / ٢٩٧) بسند ضعيف .
(٣) تاريخ الطبري (٥ / ٦٣٠) .
(٤) المصدر نفسه (٥ / ٦٣٦) .
(٥) الإصابة (١ / ٤٥٤) و أنساب الأشراف (٢/ ٥٦) بسند حسن إلى قتادة مرسلاً .

وكان عمار بن ياسر ﷺ قد جاوز الرابعة والتسعين عاماً، وكان يحارب بحماس، يحرض الناس، ويستنهض الهمم، ولكنه بعيد كل البعد عن الغلو، فقد سمع رجلاً بجواره يقول: كفر أهل الشام. فنهاه عمار عن ذلك، وقال: إنما بغوا علينا فنحن نقاتلهم لبغيهم فإلهنا واحد ونبينا واحد وقبلتنا واحدة [١].

ولما رأى عمار ﷺ تقهقر أصحابه، وتقدم خصومه، أخذ يستحثهم ويبين لهم أنهم على الحق ولا يغرنهم ضربات الشاميين الشديدة، فيقول ﷺ: من سره أن تكتنفه الحور العين فليقدم بين الصفين محتسباً، فإني لأرى صفاً يضربكم ضرباً يرتاب منه المبطلون، والذي نفسي بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل، ولعلمنا أن مصلحينا على الحق، وأنهم على الباطل [٢]. ثم أخذ في التقدم، وفي يده الحربة ترعد - لكبر سنه - ويشتد على حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ويستحثه في التقدم ويرغبه ويطمعه فيما عند الله من النعيم، ويطمع أصحابه أيضاً فيقول: أزفت الجنة وزينت الحور العين، من سره أن تكتنفه الحور العين، فليتقدم بين الصفين محتسباً. وكان منظراً مؤثراً فهو صحابي جليل مهاجري بدري جاوز الرابعة والتسعين يمتلك كل هذا الحماس وهذا العزم والروح المعنوية العالية واليقين الثابت، فكان عاملاً مهماً من عوامل حماس جيش العراق ورفع روحهم المعنوية مما زادهم عنفاً وضراوة وتضحية في القتال، حتى استطاعوا أن يحولوا المعركة لصالحهم، وتقدم هشام بن عتبة بن أبي وقاص، وهو يرتجز بقوله:

أعور يبغي أهله محلاً ::: قد عالج الحياة حتى ملا

لابد أن يفل أو يفلا [٣]

وعمار يقول: تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل [٤]، وقد فتحت أبواب الجنة وتزينت الحور العين:

اليوم ألقى الأحبة ::: محمداً وحزبه [٥]

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٥ / ٢٩٠) الإسناد حسن لغيره.
(٢) مجمع الزوائد (٧ / ٢٤٣)، خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد ص: ٢١٩، إسناده حسن.
(٣) تاريخ الطبري (٥ / ٦٥٢)
(٤) الأسل: الرماح.
(٥) تاريخ الطبري (٥ / ٦٥٢)

وعن غروب شمس ذلك اليوم الخميس ، طلب عمار شربة من لبن ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن» [١] ، ثم تقدم واستحث مع حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري فلم يرجعا وقتلا [٢] ، رحمهم الله ورضي الله عنهما .

٣ - ليلة الهرير يوم الجمعة :

عادت الحرب في نفس الليلة بشدة واندفاع لم تشهدها الأيام السابقة ، وكان اندفاع أهل العراق بحماس وروح عالية حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم ، وقاتل أمير المؤمنين علي قتالاً شديداً وبايع على الموت [٣] ، وذكر أن علياً ﷺ صلى بجيشه المغرب صلاة الخوف [٤] وقال الشافعي: وحفظ عن علي أنه صلى صلاة الخوف ليلة الهرير [٥] ، يقول شاهد عيان: اقتتلنا ثلاثة أيام وثلاث ليال حتى تكسرت الرماح ونفدت السهام ثم صرنا إلى المسايفة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتى صرنا نعانق بعضنا بعضاً ولما سارت السيوف كالمناجل تضاربنا بعمد الحديد ، فلا تسمع إلا غمغمة وهمهمة القوم ، ثم ترامينا بالحجارة وتحاثينا بالتراب وتعاضينا بالأسنان وتكادمنا بالأفواه إلى أن أصبحوا في يوم الجمعة ، وارتفعت الشمس وإن كانت لا ترى من غبار المعركة وسقطت الألوية والرايات ، وأنهك الجيش التعب وكلت الأيدي وجفت الحلوق [٦] .

ويقول ابن كثير في وصف ليلة الهرير ويوم الجمعة: وتعاضوا بالأسنان يقتتل الرجلان حتى يثخنا ثم يجلسان يستريحان ، وكل واحد منهما ليهمر على الآخر ، ويهمر عليه ، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك ، وصلى الناس الصبح إيماء وهم في القتال حتى تضاحى النهار وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام [٧] .

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٥ / ٣٠٢ ، ٣٠٣) بسند منقطع .
(٢) تاريخ الطبري (٥ / ٦٥٣) .
(٣) المستدرك (٣ / ٤٠٢) قال الذهبي: ضعيف ، خلافة علي: ص (٢٢٦) .
(٤) السنن الكبرى للبيهقي (٣ / ٢٥٢) قال الألباني: رواه البيهقي بصيغة التمريض ، إرواء الغليل (٣ / ٢) .
(٥) تلخيص الحبير (٢ / ٧٨) ، خلافة علي بن أبي طالب: ص (٢٢٧) .
(٦) شذرات الذهب (١ / ٤٥) ، وقعة صفين: ص (٣٦٩) .
(٧) البداية والنهاية (٧ / ٢٨٣) .

٤ - الدعوة إلى التحكيم:

إن ما وصل إليه حال الجيشين بعد ليلة الهرير لم يكن يحتمل مزيد قتال، وجاءت خطبة الأشعث بن قيس زعيم كندة في أصحابه ليلة الهرير فقال: قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن تواقفنا غداً إنه لفناء العرب، وضيعة الحرمات، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحرب، ولكني رجل مسن، وأخاف على النساء والذراري غداً، إذا نحن فنينا، اللهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آل [١].

وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال: أصاب ورب الكعبة لئن نحن التقينا غداً لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا، ولتميلن أهل فارس على أهل العراق وذراريهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى، ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القنا [٢]، وهذه رواية عراقية لا ذكر فيها لعمرو بن العاص، ولا للمخادعة والاحتيال، وإنما كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمراً شيء أن تأتي أحدهم الشجاعة فيبادر بذلك وينقذ ما تبقى من قوى الأمة المتصارعة، إنما يزعج ذلك السبئية الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة، وتركوا لنا ركاماً من الروايات المضللة بشأنها تحيل الحق باطلاً، وتجعل الفضل - كالمناداة لتحكيم القرآن لصون الدماء المسلمة - جريمة ومؤامرة [٣] وحيلة ونسبوا لأمير المؤمنين علي أقوالاً مكذوبة تعارض ما في الصحيح، على أنه قال: ما رفعوها ثم لا يرفعونها، ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة [٤].

ومن الشنائع قولهم عن رفع المصاحف: إنها مشورة ابن العاهرة [٥]، ووسعوا دائرة الدعاية المضادة على عمرو بن العاص وأنه مخادع وماكر بسبب الروايات الموضوعة التي لفقها أعداء الصحابة الكرام، ونقلها الطبري وابن الأثير وغيرهما، فوقع فيها كثير من المؤرخين المعاصرين مثل حسن إبراهيم حسن في تاريخ الإسلام، ومحمد الخضري بك في

---

(١) وقعة صفين: ص (٤٧٩).
(٢) المصدر نفسه: ص (٨٨١ - ٨٨٤).
(٣) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين: ص (٣١٦).
(٤) الكامل (٢ / ٣٨٦).
(٥) تاريخ الطبري (٥ / ٦٦٢).

تاريخ الدولة الأموية ، وعبد الوهاب النجار في تاريخ الخلفاء الراشدين ، وغيرهم كثير ، مما ساهم في تشويه الحقائق التاريخية الناصعة .

إن رواية أبي مخنف تفترض أن علياً رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام ، ثم استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد [١] ، وهذه الرواية تحمل سباً من علي لمعاوية وصحبه يتنزه عنه أهل ذلك الجيل المبارك ، فكيف بساداتهم وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي؟! ويكفي للرواية سقوطاً أن فيها أبا مخنف الرافضي المحترق ، فهي رواية لا تصمد للبحث النزيه ، ولا تقف أمام روايات أخرى لا يتهم أصحابها بهوى مثل ما يرويه الإمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل أحد رجال علي بن أبي طالب فقال: كنا بصفين ، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى علي المصحف ، فادعه إلى كتاب الله ، فإنه لا يأبى عليك ، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣] ، فقال علي: نعم ، أنا أولى بذلك ، فقام القراء - الذين صاروا بعد ذلك خوارج - بأسيافهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا نمشي إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقام سهل ابن حنيف الأنصاري ﷺ فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم ، لقد كنا مع رسول الله ﷺ ، يوم الحديبية ، ولو نرى قتالاً لقاتلنا ، وذلك في الصلح الذي بين رسول الله ﷺ وبين المشركين ، ثم حدثهم عن معارضة عمر ﷺ للصلح يوم الحديبية ونزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ ، فقال علي: أيها الناس إن هذا فتح ، فقبل القضية ورجع ، ورجع الناس [٢] .

وأظهر سهل بن حنيف ﷺ اشمئزازه ممن يدعون إلى استمرار الحرب بين الإخوة وقال: أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم [٣] ، وبين لهم أنه لا خيار عن الحوار والصلح لأن ما سواه فتنة لا تعرف عواقبها ، فقد قال: ما وضعنا بسيوفنا على عواتقنا إلى أمر إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه قبل هذا الأمر ، ما نسد منها خصماً إلا تفجر علينا خصم ما ندري كيف نأتي له [٤] . وفي هذه الروايات الصحيحة رد على دعاة الفتنة ، مبغضي الصحابة الذين يضعون

---

(١) تاريخ الطبري (٥ / ٦٦٢ ، ٦٦٣) .
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٨ / ٣٣٦) ، مسند أحمد مع الفتح الرباني (٨ / ٤٨٣) .
(٣) البخاري رقم (٤١٨٩) .
(٤) البخاري رقم (٤١٨٩) .

الأخبار المكذوبة ، ويضعون الأشعار وينسبونها إلى أعلام الصحابة والتابعين الذين شاركوا في صفين ، ليظهروا بمظهر المتحمس لتلك الحرب ليزرعوا البغضاء في النفوس ويعملوا ما في وسعهم على استمرار [١] الفتنة .

إن الدعوة إلى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان إلى معاوية وقبول التحكيم دون التأكيد على دخول معاوية في طاعة علي والبيعة له ، تطور فرضته أحداث حرب صفين ، إذ أن الحرب التي أودت بحياة الكثير من المسلمين ، أبرزت اتجاهاً جماعياً رأى أن وقف القتال وحقن الدماء ضرورة تقتضيها حماية شوكة الأمة وصيانة قوتها أمام عدوها ، وهو دليل على حيوية الأمة ووعيها وأثرها في اتخاذ القرارات [٢] .

إن أمير المؤمنين علياً ﷺ قبل وقف القتال في صفين ، ورضي التحكيم وعد ذلك فتحاً ورجع [٣] إلى الكوفة ، وعلق على التحكيم آمالاً في إزالة الخلاف ، وجمع الكلمة ، ووحدة الصف ، وتقوية الدولة ، وإعادة حركة الفتوح من جديد .

إن وصول الطرفين إلى فكرة التحكيم والاستجابة له أسهمت فيها عدة عوامل منها:

أ - أنه كان آخر محاولة من المحاولات التي بذلت لإيقاف الصدام وحقن الدماء سواء تلك المحاولات الجماعية أو المحاولات الفردية التي بدأت بعد موقعة الجمل ولم تفلح ، أما الرسائل التي بودلت بين الطرفين لتفيد وجهات نظر كل منهما ، فلم تجد هي الأخرى شيئاً ، وكان آخر تلك المحاولات ما قام به معاوية في أيام اشتداد القتال حيث كتب إلى علي ﷺ يطالبه بوقف القتال فقال: فإني أحسبك أن لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك ما بلغت لم نجنها على أنفسنا ، فإنا إن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي منا ما ينبغي أن نندم على ما مضى ونصلح ما بقي [٤] .

ب - تساقط القتلى وإراقة الدماء الغزيرة ومخافة الفناء ، فصارت الدعوة إلى إيقاف الحرب مطلباً يرنو إليه الجميع .

جـ - الملل الذي أصاب الناس من طول القتال ، حتى وكأنهم على موعد لهذا الصوت الذي نادى بالهدنة والصلح ، وكانت أغلبية جيش علي في اتجاه الموادعة ، وكانوا يرددون: قد

---

(١) الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف: ص (٥٣٠) .
(٢) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين: ص (٣٨) .
(٣) دراسة في تاريخ الخلفاء: ص (٣٨) .
(٤) الأخبار الطوال للدينوري: ص (١٨٧) ، دراسات في عهد النبوة: ص (٤٣٢) .

أكلتنا الحرب ، ولا نرى البقاء إلا عن الموادعة [١] ، وهذا ينقض ذلك الرأي المتهافت الذي روج بأن رفع المصاحف كان خدعة من عمرو بن العاص ، والحق أن فكرة رفع المصاحف لم تكن جديدة وليست من ابتكار عمرو بن العاص ، بل رفع المصحف في الجمل ، ورشق حامله كعب بن سور قاضي البصرة بسهم وقتل .

د - الاستجابة لصوت الوحي الداعي للإصلاح ، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] ويؤيد هذا ما قاله علي بن أبي طالب حينما عرض عليه الاحتكام إلى كتاب الله ، قال: نعم أنا أولى بذلك ، بيننا وبينكم كتاب الله [٢] .

٥ - مقتل عمار بن ياسر ﷺ وأثره على المسلمين :

يعد حديث رسول الله ﷺ لعمار ، ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية» [٣] من الأحاديث الصحيحة والثابتة عن النبي ﷺ وقد كان لمقتل عمار ﷺ - أثر في معركة صفين ، فقد كان علماً لأصحاب رسول الله يتبعونه حيث سار ، وكان خزيمة بن ثابت حضر صفين وكان كافاً سلاحه ، فلما رأى مقتل عمار سل سيفه وقاتل أهل الشام ، وذلك لأنه سمع [٤] حديث رسول الله ﷺ عن عمار: «تقتله الفئة الباغية» . واستمر في القتال حتى قتل [٥] ، وكان لمقتل عمار أثر في معسكر معاوية ، فهذا أبوعبد الرحمن السلمي دخل في معسكر أهل الشام ، فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو ، وأبا الأعور السلمي ، عند شريعة الماء يسقون ، وكانت هي شريعة الماء الوحيدة التي يستقى منها الفريقان ، وكان حديثهم عن مقتل عمار بن ياسر ، إذ قال عبد الله لمعاوية: لقد قتلنا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال . فقال معاوية: اسكت فوالله ما تزال تدحض [٦] في بولك ، أنحن قتلناه؟ إنما قتله من جاء به [٧] ، انتشر تأويل معاوية بين أهل الشام انتشار النار في الهشيم ، وجاء في رواية صحيحة أن عمرو بن حزم دخل على عمرو بن العاص فقال: قتل عمار وقد قال فيه رسول

---

(١) صفين: ص (٤٨٢ - ٤٨٥) ، دراسات في عهد النبوة: ص (٤٣٣) .
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٨ / ٣٣٦) .
(٣) مسلم رقم (٢٩١٦) .
(٤) مسلم رقم (٢٩١٦) .
(٥) خلافة علي: ص (٢١١) ، مجمع الزوائد للهيثمي (٧ / ٢٤٢) ، وقال فيه: رواه الطبراني وفيه أبو معشر وهو لين .
(٦) الدحض: الزلق ، والداحض: من لا ثبات له ، ولا عزيمة في الأمور .
(٧) مسند أحمد (٢ / ٢٠٦) إسناده حسن .

الله ﷺ : «**تقتله الفئة الباغية**» . فقام عمرو بن العاص فزعاً يرجع حتى دخل على معاوية فقال له معاوية: ما شأنك؟ فقال: قتل عمار . قال معاوية: فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «**تقتلك الفئة الباغية**» . فقال له معاوية: دحضت في بولك ، أونحن قتلناه؟! إنما قتله علي وأصحابه ، وجاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا ، أو قال: بين سيوفنا[١] .

وفي رواية صحيحة أيضاً: جاء رجلان عند معاوية يختصمان في رأس عمار ، يقول كل واحد منهما . أنا قتلته ، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ليطب به أحدكم نفساً لصاحبه ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقتله الفئة الباغية**» . قال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: «**أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه. فأنا معكم ولست أقاتل**» [٢] .

من الروايات السابقة نلاحظ أن الصحابي الفقيه عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما حريص على قول الحق والنصح ، فقد رأى أن معاوية وجنده ، هم الفرقة الباغية لقتلهم ، عماراً ، فقد تكرر منه هذا الاستنكار في مناسبات مختلفة ، ولا شك أن مقتل عمار ﷺ قد أثر في أهل الشام بسبب هذا الحديث ، إلا أن معاوية ﷺ أول الحديث تأويلاً غير مستساغ ولا يصح في أن الذين قتلوا عماراً هم الذين جاءوا به إلى القتال [٣] . وقد أثر مقتل عمار كذلك على عمرو بن العاص ، بل كان استشهاد عمار دافعاً لعمرو بن العاص للسعي لإنهاء الحرب [٤] ، وقد قال ﷺ: وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة [٥] .

وقد جاء في البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كنا نحمل لبنة ، وعمار لبنتين ، فرآه النبي ﷺ فينفض التراب عنه ويقول: «**ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**» قال عمار: أعوذ بالله من الفتن [٦] ، وقال ابن عبد البر: تواترت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال: «**تقتل عماراً الفئة الباغية**» ، وهذا من إخباره بالغيب وإعلام نبوته ﷺ وهو من أصح الأحاديث [٧] ، وقال الذهبي بعد ما ذكر الحديث: وفي الباب عن عدة من

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١١ / ٢٤٠) بسند صحيح .
(٢) مسند أحمد (١١ / ١٣٨ ، ١٣٩) .
(٣) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد: ص (٣٢٥) .
(٤) معاوية بن أبي سفيان ، الغضبان ، ص (٢١٥) .
(٥) أنساب الأشراف (١ / ١٧٠) ، عمرو بن العاص للغضبان: ص (٦٠٣) .
(٦) البخاري رقم (٤٤٧) .
(٧) الاستيعاب (٣ / ١١٤٠) .

الصحابة ، فهو متواتر [١] .

٦ - فهم العلماء للحديث :

أ - قال ابن حجر : وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة وفضيلة ظاهرة لعلي وعمار ، ورد على النواصب الزاعمين أن علياً لم يكن مصيباً في حروبه [٢] .

وقال أيضاً: دل الحديث: تقتل عماراً الفئة الباغية ، على أن علياً كان المصيب في تلك الحروب ، لأن أصحاب معاوية قتلوه [٣] .

ب - يقول النووي: وكانت الصحابة يوم صفين يتبعونه حيث توجه لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة لهذا الحديث [٤] .

جـ - قال ابن كثير: كان علي وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية ، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم ، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: حدثني من هو خير مني - يعني أبا قتادة - أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**» [٥] ، وقال أيضاً: وهذا مقتل عمار بن ياسر - رضي الله عنهما - مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، قتله أهل الشام ، وبان وظهر بذلك سر ما أخبر به رسول الله ﷺ من أنه تقتله الفئة الباغية ، وبان بذلك أن علياً محق ، وأن معاوية باغ ، وما في ذلك من دلائل النبوة [٦] .

د - وقال الذهبي: هم طائفة من المؤمنين ، بغت على الإمام علي ، وذلك بنص قول المصطفى صلوات الله عليه لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**» [٧] .

هـ - قال القاضي أبو بكر بن العربي: في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ ﴾ هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، والعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عول الصحابة ، وإليها لجأ

---

(١) سير أعلام النبلاء (١ / ٤٢١) .
(٢) فتح الباري (١ / ٦٤٦) .
(٣) فتح الباري (١٣ / ٩٢) .
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢ / ٣٨) .
(٥) البداية والنهاية (٦ / ٢٢٠) .
(٦) المصدر نفسه (٧ / ٢٧٧) .
(٧) سير أعلام النبلاء (٨ / ٢٠٩) .

الأعيان من هذه الملة، وإياها عني النبي ﷺ بقوله: «**تقتل عماراً الفئة الباغية**» [١].

و - **وقال ابن تيمية**: وهذا يدل على صحة إمامة علي ووجوب طاعته، وأن الداعي إلى طاعته داع إلى الجنة، والداعي إلى مقاتلته داع إلى النار - وإن كان متأولاً - وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال علي، وعلى هذا فمقاتله مخطئ - وإن كان متأولاً - أو باغ - بلا تأويل - وهو أصح القولين لأصحابنا، وهو الحكم بتخطئة من قاتل علياً وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين [٢]، وقال أيضاً: مع أن علياً أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عماراً قتلته الفئة الباغية - كما جاءت به النصوص - فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولا نتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف [٣].

ز - **وقال عبد العزيز بن باز**: وقال ﷺ في حديث عمار: «**تقتل عماراً الفئة الباغية**» فقتله معاوية وأصحابه في وقعة صفين، فمعاوية وأصحابه بغاة، لكن مجتهدون ظنوا أنهم مصيبون في المطالبة بدم عثمان [٤].

حـ - **وقال سعيد حوى**: بعد أن قتل عمار الذي وردت النصوص مبينة أنه تقتله الفئة الباغية، تبين للمترددين أن علياً كان على حق وأن القتال معه كان واجباً، ولذا عبر ابن عمر عن تخلفه بأنه يأسى بسبب هذه التخلف، وما ذلك إلا أنه ترك واجباً وهو نصرة الإمام الحق على الخارجين عليه بغير حق كما أفتى بذلك الفقهاء [٥].

٧ - الرد على قول معاوية رضي الله عنه إنما قتله من جاء به [٦]:

إن جل الصحابة والتابعين قد فهموا من قول رسول الله ﷺ لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**» [٧] أن المقصود: جيش معاوية رضي الله عنه مع أنهم - أي معاوية وجيشه - معذورون في اجتهادهم، فهم يقصدون الحق ويريدونه ولكنهم لم يصيبوه، وفئة عليّ أولى بالحق منهم كما

---

(١) أحكام القرآن (٤ / ١٧١٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٤ / ٤٣٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٤ / ٤٤٩، ٤٤٥٠).
(٤) فتاوى ومقالات متنوعة (٦ / ٨٧).
(٥) الأساس في السنة (٤ / ١٧١٠).
(٦) مسند أحمد (٢ / ٢٠٦) إسناده حسن.
(٧) مسلم رقم (٢٩١٦).

قال ﷺ [١] ، ومع أن الأئمة لم يعجبهم تأويل معاوية - كما سأنقل - إلا أنهم عذروه في اجتهاده ، فها هو ابن حجر يقول في قوله ﷺ : «**يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**» [٢] .

فإن قيل: كان قتله بصفين وهو مع علي ، والذين قتلوه مع معاوية ، وكان معه جماعة من الصحابة ، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟ فالجواب: أنهم كانوا ظانين أنهم يدعونه إلى الجنة ، وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم ، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببلها ، وهو طاعة الإمام ، وكذلك كان عمار يدعوهم إلى طاعة علي ، وهو الإمام الواجب الطاعة ، إذ ذاك ، وكانوا هم يدعونه إلى خلاف ذلك ، لكنهم معذورون للتأويل الذي ظهر لهم [٣] .

وقال القرطبي: وقال الإمام أبو المعالي في كتاب الإرشاد ، فصل ... علي ﷺ ، كان إماماً حقاً في توليته ، ومقاتلوه بغاة ، وحسن الظن بهم يقتضي أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطأوه [٤] ، وقال أيضاً: وقد أجاب علي ﷺ عن قول معاوية بأن قال: فرسول الله ﷺ إذن قتل حمزة حين أخرجه ، وهذا من علي ﷺ إلزام ، لا جواب عنه ، وحجة لا اعتراض عليها ، قال الإمام الحافظ أبو الخطاب بن دحية [٥] ، وقال ابن كثير: فقول معاوية: إنما قتله من قدمه إلى سيوفنا ، تأويل بعيد جداً ، إذ لو كان كذلك لكان أمير الجيش هو القاتل للذين يقتلون في سبيل الله ، حيث قدمهم إلى سيوف الأعداء [٦] ، وقال ابن تيمية: وهذا القول لا أعلم له قائلاً من أصحاب الأئمة الأربعة ونحوهم من أهل السنة ، ولكن هو قول كثير من المروانية ومن وافقهم [٧] ، وقال ابن القيم معلقاً على هذا التأويل: نعم ، التأويل الباطل تأويل أهل الشام قوله ﷺ لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**» [٨] . فقالوا نحن لم نقتله إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا ، فهذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره ، فإن الذي قتله هو الذي باشر قتله ، لا من استنصر به [٩] .

---

(١) معاوية ابن أبي سفيان: ص (٢١٠ - ٢١٤) .
(٢) البخاري رقم (٤٤٧) .
(٣) التذكرة (٢ / ٢٢٣) .
(٤) التذكرة (٢ / ٢٢٣) .
(٥) المصدر نفسه (٢ / ٢٢٢) .
(٦) البداية والنهاية (٦ / ٢٢١) .
(٧) منهاج السنة (٤ / ٤٠٦) .
(٨) مسلم رقم (٢٩١٦) .
(٩) الصواعق المرسلة (١ / ١٨٤ ، ١٨٥) .

٨ - من هو قاتل عمار بن ياسر؟:

قال أبو الغادية الجهني وهو يحدث عن قتله لعمار: فلما كان يوم صفين، أقبل يستن أول الكتيبة رجلاً، حتى إذا كان بين الصفين فأبصر رجل عورة، فطعنه في ركبته بالرمح فعثر، فانكشف المغفر عنه، فضربته فإذا هو رأس عمار. ثم قتل عمار. قال الراوي: واستسقى أبو الغادية، فأتي بماء في زجاج، فأبى أن يشرب فيها فأتي بماء في قدح فشرب، فقال رجل: . . . يتورع عن الشرب في الزجاج ولم يتورع عن قتل عمار [١]، ويخبر عمرو بن العاص ﷺ، الخبر فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قاتل عمار وسالبه في النار**» [٢].

قال ابن كثير: ومعلوم أن عمار كان في جيش علي يوم صفين، وقتله أصحاب معاوية من أهل الشام، وكان الذي تولى قتله يقال له أبو الغادية، رجل من أفناد الناس، وقيل إنه صحابي [٣]، وقال ابن حجر: والظن بالصحابة في تلك الحروب أنهم كانوا متأولين، وللمجتهد المخطئ أجر، وإذا ثبت هذا في حق آحاد الناس فثبوته للصحابة بالطريق الأولى [٤]، وقال الذهبي: وابن ملجم عند الروافض أشقى الخلق في الآخرة، وهو عندنا أهل السنة ممن نرجو له النار، ونجوز أن الله يتجاوز عنه، لا كما يقول الروافض والخوارج، وحكمه حكم قاتل عثمان، وقاتل الزبير، وقاتل طلحة، وقاتل سعيد بن جبير وقاتل عمار وقاتل خارجة، وقاتل الحسين، فكل هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم في الله، ونكل أمورهم إلى الله عز وجل [٥].

وقد وفق الألباني في تعليقه على قول ابن حجر: هذا حق، ولكن تطبيقه على كل فرد من أفرادهم مشكل، لأنه يلزم تناقض القاعدة المذكورة بمثل حديث الترجمة [عنوان باب (قاتل عمار وسالبه في النار)] [٦]، إذ لا يمكن القول بأن أبا الغادية القاتل لعمار مأجور، لأنه قتله مجتهداً، ورسول الله ﷺ يقول: «قاتل عمار في النار» [٧]، فالصواب أن يقال: إن القاعدة الصحيحة، إلا ما دل الدليل القاطع على خلافها، فيستثنى ذلك منها كما هو

---

(١) الطبقات الكبرى (٣ / ٢٦٠، ٢٦١).
(٢) السلسلة الصحيحة (٥ / ١٨ - ١٩).
(٣) البداية والنهاية (٦ / ٢٢٠).
(٤) الإصابة (٧ / ٢٦٠).
(٥) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٦٥٤).
(٦) السلسلة الصحيحة (٥ / ١٨ - ١٩).
(٧) السلسلة الصحيحة (٥ / ١٨ - ١٩).

الشأن هنا ، وهذا خير من ضرب الحديث الصحيح [١] بها ، وقد ترجم لأبي الغادية الجهني ابن عبد البر قال: اختلف في اسمه: فقيل: يسار بن سبع ، وقيل: يسار بن أزهر ، وقيل: اسمه مسلم . سكن الشام ونزل في واسط ، يعد في الشاميين ، أدرك النبي ﷺ وهو غلام ، روى عنه أنه قال: أدركت النبي ﷺ وأنا أيفع ، أرد على أهلي الغنم ، وله سماع من النبي ﷺ ، قوله ﷺ : «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٢] ، وكان محباً لعثمان ، وهو قاتل عمار بن ياسر ، وكان يصف قتله إذا سئل عنه لا يباليه ، وفي قصته عجب عند أهل العلم [٣] .

٩ - المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة :

إن وقعة صفين كانت من أعجب الوقائع بين المسلمين . كانت هذه الواقعة من الغرابة إلى حد أن القارئ لا يصدق ما يقرأ ويقف مشدوهاً أمام طبيعة النفوس عند الطرفين ، فكل منهما كان يقف وسط المعركة شاهراً سيفه وهو يؤمن بقضيته إيماناً كاملاً ، فليست معركة مدفوعة من قبل القيادة ، يدفعون الجنود إلى معركة غير مقتنعين بها ، بل كانت معركة فريدة في بواعثها ، وفي طريقة أدائها ، وفيما خلفتها من آثار ، فبواعثها في نفوس المشاركين تعبر عنها بعض المواقف التي وصلت إلينا في المصادر التاريخية ، فهم إخوان يذهبون معاً إلى مكان الماء فيستقون جميعاً ويزدحمون وهم يغرفون الماء وما يؤذي إنسان إنساناً [٤] ، وهم إخوة يعيشون معاً عندما يتوقف القتال فهذا أحد المشاركين يقول: كنا إذا تواعدنا من القتال دخل هؤلاء في معسكرهؤلاء . وهؤلاء في معسكر هؤلاء . وتحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم [٥] ، وهم أبناء قبيلة واحدة ولكل منهما اجتهاده ، فيقاتل أبناء القبيلة الواحدة كل في طرف [٦] قتالاً مريراً ، وكل منهما يرى نفسه على الحق وعنده الاستعداد لأن يقتل من أجله ، فكان الرجلان يقتتلان حتى يثخنا (وهناً وضعفاً) ثم يجلسان يستريحان ، ويدور بينهما الكلام الكثير ، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا [٧] ، وهما أبناء دين واحد يجمعها ، وهو أحب إليهما

---

(١) المصدر نفسه (٥ / ١٩) .

(٢) مسند أحمد (٤ / ٧٦) وسنده صحيح

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، رقم (٣٠٨٩)

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٦١٠) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٢ / ٤١) ، مرويات أبي مخنف ، ص (٢٩٦) .

(٦) البداية والنهاية (٧ / ٢٧٠) ، عن دراسات في عهد النبوة ، ص (٤٢٤)

(٧) تاريخ الطبري ، نقلاً عن دراسات في عهد النبوة ، ص (٤٢٤) .

من أنفسهما ، فإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها [١] ، ويوم قتل عمار بن ياسر صلى عليه الطرفان [٢] .

ويقول شاهد عيان اشترك في صفين: تنازلنا بصفين ، فاقتتلنا أياماً فكثر القتلى بيننا حتى عقرت الخيل ، فبعث علي إلى عمرو بن العاص أن القتلى قد كثروا فأمسك حتى يدفن الجميع قتلاهم ، فأجابهم ، فاختلط بعض القوم ببعض حتى كانوا هكذا - وشبك بين أصابعه - وكان الرجل من أصحاب علي يشد فيقتل في عسكر معاوية ، فيستخرج منه ، وقد مر أصحاب علي بقتيل لهم أمام عمرو ، فلما رآه بكى وقال: لقد كان مجتهداً أخشن في أمر الله [٣] ، وكانوا يسارعون إلى التناهي عن المنكر حتى في مثل هذه المواقع ، فكانت هناك مجموعة عرفوا بالقراء ، وكانوا من تلامذة عبد الله بن مسعود من أهل الشام معاً ، فلم ينضموا إلى أمير المؤمنين علي ولا إلى معاوية بن أبي سفيان وقالوا لأمير المؤمنين: إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم ، ونعسكر على حده حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام ، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له ، أو بدا منه بغي كنا عليه ، فقال علي: مرحباً وأهلاً ، هذا هو الفقه في الدين ، والعلم بالسنة من لم يرض بهذا فهو جائر خائن [٤] .

والحقيقة أن هذه المواقف منبعثة من قناعات واجتهادات استوثقوا منها في قرارة أنفسهم وقاتلوا عليها [٥] .

١٠ - معاملة الأسرى:

إن المعاملة الحسنة للأسير وإكرامه في صفين من الأمور البديهية بعدما استعرضنا المعاملة الكريمة أثناء القتال ، وقد بين الإسلام معاملة الأسرى ، فقد حض رسول الله ﷺ على إكرام الأسير ، وإطعامه أفضل الأطعمة الموجودة ، هذا مع غير المسلمين فكيف إذا كان الأسير مسلماً؟! لاشك أن إكرامه والإحسان إليه أولى ، ولكن الأسير في المعركة يعتبر فئة وقوة لفرقته [٦] ، ولذلك كان علي ﷺ يأمر بحبسه فإن بايع أخلى سبيله وإن أبى أخذ

---

(١) تاريخ دمشق (١٨ / ٢٢٣٩) ، دراسات في عهد النبوة ، ص (٤٢٤) .
(٢) أنساب الأشراف (٦ / ٥٦) بسند حسن إلى عتبة ، خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، ص ٢٤١)
(٣) أنساب الأشراف (٦ / ٥٦) بسند حسن إلى عتبة ، خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، ص ٢٤١) .
(٤) صفين ، ص (١١٥) ، دراسات في عهد النبوة: ص (٤٢٤) .
(٥) دراسات في عهد النبوة ، ص (٤٢٤) .
(٦) كتاب قتال أهل البغي من الحاوي الكبير ، ص (١٣٣ ، ١٣٤) .

سلاحه ودابته أو يهبهما لمن أسره ويحلفه أن لا يقاتل ، وفي رواية يعطيه أربعة دراهم [١] ، وغرض الخليفة الراشد من ذلك واضح ، وهو إضعاف جانب البغاة وقد أتى بأسير يوم صفين ، فقال الأسير: لا تقتلني صبراً فقال علي ﷺ: لا أقتلك صبراً ، إني أخاف الله رب العالمين ، فخلى سبيله ثم قال: أفيك خير تبايع [٢]؟ .

ويبدو من هذه الروايات أن معاملته للأسرى كما يلي:

* إكرام الأسير والإحسان إليه .

* يعرض عليه البيعة والدخول في الطاعة ، فإن بايع خلى سبيله .

* إن أبى البيعة أخذ سلاحه ويحلفه أن لا يعود للقتال ويطلقه .

* إن أبى إلا القتال تحفظ عليه في الأسر ولا يقتله صبراً [٣] ، وقد أتى ﷺ مرة بخمسة عشر أسيراً - ويبدو أنهم جرحى - فكان من مات منهم غسله وكفنه وصلى عليه [٤] ، ويقول محب الدين الخطيب معلقاً على هذه الحرب: ومع ذلك ، فإن هذه الحرب المثالية هي الحرب الإنسانية الأولى في التاريخ التي جرى فيها المتحاربان معاً على مبادئ الفضائل التي يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها في حروبهم ، ولو في القرن الحادي والعشرين ، وإن كثيراً من قواعد الحرب في الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب ولله في كل أمر حكمة [٥] ، قال ابن العديم: قلت: وهذا كله حكم أهل البغي ، ولهذا قال أبو حنيفة لولا ما سار علي فيهم ، ما علم أحد كيف السيرة فى المسلمين [٦] .

١١ - عدد القتلى :

تضاربت أقوال العلماء في عدد القتلى ، فذكر ابن أبي خيثمة أن القتلى في صفين بلغ عددهم سبعين ألفاً ، من أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً ، ومن أهل الشام خمسة وأربعون ألف مقاتل [٧] ، كما ذكر ابن القيم أن عدد القتلى في صفين بلغ سبعين ألفاً أو أكثر [٨] ،

---

(١) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، ص (٢٤٣) .
(٢) الإمام الشافعي (٤ / ٢٢٤) ، (٨ / ٢٥٦) .
(٣) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، ص (٢٤٣) .
(٤) تاريخ دمشق ، تحقيق المنجد (١ / ٣٣١) ، خلافة علي بن أبي طالب ص (٢٤٣) .
(٥) العواصم من القواصم ، ص (١٦٨ ، ١٦٩) من تعليق الخطيب في الحاشية .
(٦) بغية الطلب في تاريخ حلب (٣٠٩) ، خلافة علي ص (٢٤٥) .
(٧) الأنباء للقضاعي ص (٥٩) نقلاً عن خلافة علي ص (٢٤٦) .
(٨) الصواعق المرسلة (١ / ٣٧٧) بدون سند ، تحقيق محمد دخيل الله .

ولا شك أن هذه الأرقام غير دقيقة ، بل أرقام خيالية ، فالقتال الحقيقي والصدام الجماعي استمر ثلاثة أيام مع وقف القتال بالليل إلا مساء الجمعة فيكون مجموع القتال حوالي ثلاثين ساعة[١] ، ومهما كان القتال عنيفاً ، فلن يفوق شدة القادسية التي كان عدد الشهداء فيها ثمانية آلاف وخمسمائة [٢] ، وبالتالي يصعب عقلاً أن نقبل تلك الروايات التي ذكرت الأرقام الكبيرة .

١٢ - تفقد أمير المؤمنين علي القتلى وترحمه عليهم :

كان أمير المؤمنين علي ﷺ بعد نهاية الجولات الحربية يقوم بتفقد القتلى ، فيقول شاهد عيان: رأيت علياً على بغلة النبي ﷺ الشهباء ، يطوف بين القتلى [٣] ، وأثناء تفقده القتلى ومعه الأشتر ، مر برجل مقتول - وهو أحد القادة والعباد المشهورين بالشام - فقال الأشتر- وفي رواية أخرى عدي بن حاتم: يا أمير المؤمنين أحابس[٤] معهم؟ عهدي والله به مؤمن ، فقال علي: فهو اليوم مؤمن . لعل هذا الرجل المقتول هو القاضي الذي أتى عمر بن الخطاب وقال: يا أمير المؤمنين رأيت رؤيا أفزعتني ، قال ما هي؟ قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم معهما نصفين . قال: فمع أيهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس ، فقال عمر: قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٣] ، فانطلق فوالله لا تعمل لي عملاً أبداً ، قال الراوي: فبلغني أنه قتل مع معاوية بصفين [٥] .

وقد وقف علي على قتلاه وقتلى معاوية فقال: غفر الله لكم ، غفر الله لكم ، للفريقين جميعاً [٦] ، وعن يزيد بن الأصم قال: لما وقع الصلح بين علي ومعاوية ، خرج علي فمشى في قتلاه فقال: هؤلاء في الجنة ، ثم خرج إلى قتلى معاوية فقال: هؤلاء في الجنة ، ويصير الأمر إلي وإلى معاوية [٧] ، وكان يقول عنهم هم: المؤمنون [٨] ، وقوله ﷺ في أهل صفين لا يكاد يختلف عن قوله في أهل الجمل [٩] .

---

(١) الدولة الأموية ، ص (٣٦٠ - ٣٦٢) .
(٢) تاريخ الطبري (٤ / ٣٨٨) .
(٣) مصنف ابن أبي شيبة .
(٤) حابس بن سعد الطائي ، مخضرم ، قتل بصفين
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١١/ ٧٤) بسند منقطع .
(٦) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، ص (٢٥٠) .
(٧) مصنف ابن أبي شيبة (١٥ / ٣٠٣) بسند حسن .
(٨) تاريخ دمشق (١ / ٣٢٩ ، ٣٣١) ، خلافة علي ، ص (٢٥١) .
(٩) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، ص ٢٥١ .

١٣ - موقف لمعاوية مع ملك الروم :

استغل ملك الروم الخلاف الذي وقع بين أمير المؤمنين علي ومعاوية - رضي الله عنهما وطمع في ضم بعض الأراضي التي تحت هيمنة معاوية إليه ، قال ابن كثير: وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان أخشاه وأذله ، وقهر جندهم ودحرهم ، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه ، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت ، عند ذلك خاف ملك الروم وانكف ، وبعث يطلب الهدنة [١] ، وهذا يدل على عظمة نفس معاوية وحميته للدين .

١٤ - قصة باطلة في حق عمرو بن العاص بصفين :

قال نصر بن مزاحم الكوفي: وحمل أهل العراق وتلقاهم أهل الشام فاجتلدوا وحمل عمرو بن العاص فاعترضه علي وهو يقول:

قد علمت ذات القرون الميل ::: والخصر والأنامل الطفول [٢]

إلى أن يقول: ثم طعنه فصرعه واتقاه عمرو برجله ، فبدت عورته ، فصرف على وجهه عنه وارتث . فقال القوم: أفلت الرجل يا أمير المؤمنين . قال: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا . قال: فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي [٣] . وذكر القصة أيضاً - ابن الكلبي كما ذكر ذلك السهيلي في الروض الأنف . وقول علي: إنه اتقاني بعورته فأذكرني الرحم إلى أن قال: . . . . ويروي مثل ذلك عن عمرو بن العاص مع علي ﷺ يوم صفين وفي ذلك يقول الحارث بن النضر السهمي كما رواه ابن الكلبي وغيره:

ألي كل يوم فارس غير منته ::: وعورته وسط العجاجة بادية
يكف فما عنه علي سنانه ::: ويضحك منه في الخلاء معاوية [٤]

والرد على هذا الافتراء والإفك المبين كالآتي: فراوي الرواية الأولى نصر بن مزاحم الكوفي صاحب وقعة صفين شيعي جلد لا يستغرب عنه كذبه وافتراؤه على الصحابة ، قال عنه الذهبي في الميزان: نصر بن مزاحم الكوفي رافضي

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ١٢٢) .
(٢) الطفول جمع طفل ، بالفتح ، وهو الرخص الناعم .
(٣) وقعة صفين ، ص (٤٠٦ - ٤٠٨) ، قصص لا تثبت ، سليمان الخراشي (٦ / ١٩) .
(٤) الروافض الأنف (٥ / ٤٦٢) ، قصص لا تثبت (٦ / ١٩) .

جلد، تركوه، قال عنه العقيلي: شيعي في حديثه اضطراب وخطأ كثير، وقال أبو خيثمة: كان كذاباً [١]، وقال عنه ابن حجر: قال العجلي: كان رافضياً غالياً ليس بثقة ولا مأمون [٢]. وأما الكلبي هشام بن محمد بن السائب الكلبي، فاتفقوا على غلوه في التشيع، قال الإمام أحمد: من يحدث عنه؟ ما ظننت أن أحداً يحدث عنه. وقال الدارقطني: متروك [٣].

وعن طريق هذين الرافضين سارت هذه القصة في الآفاق وتلقفها من جاء بعدهم من مؤرخي الشيعة، وبعض أهل السنة ممن راجت عليهم أكاذيب الرافضة[٤]، وتعد هذه القصة أنموذجاً لأكاذيب الشيعة الروافض وافتراءاتهم على صحابة رسول الله، فقد اختلق أعداء الصحابة من مؤرخي الرافضة مثالب لأصحاب رسول الله ﷺ وصاغوها على هيئة حكايات وأشعار لكي يسهل انتشارها بين المسلمين و هادفين إلى الغض من جانب الصحابة الأبرار رضي الله عنهم في غفلة من أهل السنة الذين وصلوا متأخرين إلى ساحة التحقيق في روايات التاريخ الإسلامي بعد أن طارت تلكم الأشعار والحكايات بين القصاص وأصبح كثير منها من المسلمات حتى عند مؤرخي أهل السنة للأسف [٥].

١٥ - مرور أمير المؤمنين علي بالمقابر بعد رجوعه من صفين:

لما انصرف علي أمير المؤمنين ﷺ من صفين مر بمقابر فقال: "السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم، الحمد لله الذي جعل الأرض كفاتا أحياءاً وأمواتا، الحمد لله الذي خلقكم وعليها يحشركم، ومنها يبعثكم، وطوبى لمن ذكر المعاد وأعد للحساب وقنع بالكفاء" [٦].

---

(١) ميزان الاعتدال (٤ / ٢٥٣ - ٢٥٤).

(٢) لسان الميزان (٦ / ١٥٧).

(٣) المجروحون لابن حبان (٣ / ٩١)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٤٣)، معجم الأدباء (١٩ / ٢٨٧)، قصص لا تثبت (١ / ١٨).

(٤) قصص لا تثبت (١ / ٢٠).

(٥) المصدر نفسه (١ / ١٠).

(٦) البيان والتبيين للجاحظ (٣ / ١٤٨)، فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص (٣٢٧).

١٦ - إصرار قتلة عثمان ﷺ على أن تستمر المعركة :

إن قتلة عثمان كانوا حريصين على أن تستمر المعركة بين الطرفين ، حتى يتفانى الناس وتضعف قوة الطرفين ، فيكونوا بمنأى عن القصاص والعقاب ، ولذلك فإنهم فزعوا وهم يرون أهل الشام يرفعون المصاحف ، وعلي ﷺ يجيبهم على طلبهم فيأمر بوقف القتال وحقن الدماء ، فسبعوا إلى ثني أمير المؤمنين عن عزمه ، لكن القتال توقف فسقط في أيديهم فلم يجدوا بداً من الخروج على عليّ ﷺ ، فاخترعوا مقولة " الحكم لله " وتحصنوا بعيداً عن الطرفين . والغريب أن المؤرخين لم يركزوا على ما فعله هؤلاء في هذه المرحلة ، كما فعلوا في مرحلة الجمل رغم أنهم كانوا موجودين في جيش علي ، وعن سر إخفاق تلك المفاوضات التي دامت أشهراً عديدة ، وعن الدور الذي يمكن أن يكون قتلة عثمان قد قاموا به في معركة صفين لإفشال كل محاولة صلح بين الطرفين ، لأن اصطلاح علي مع معاوية هو أيضاً اصطلاح على دمائهم ، لا يعقل أن يجتهدوا في الفتنة في وقعة الجمل ويتركوا ذلك في صفين[١] .

١٧ - نهي أمير المؤمنين علي عن شتم معاوية ولعن أهل الشام :

روي أن علياً لما بلغه أن اثنين من أصحابه يظهران شتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل إليهما أن كفا عما يبلغني عنكما ، فأتيا فقالا : يا أمير المؤمنين ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ . قال: بلى ورب الكعبة المسدنة ، قالا: فلما تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ قال: كرهت لكم أن تكونوا لعانين ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وأبعدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي من لجج به[٢] .

وأما ما قيل من أن علياً كان يلعن في قنوته معاوية وأصحابه ، وأن معاوية إذا قنت لعن علياً وابن عباس والحسن والحسين ، فهو غير صحيح و لأن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا أكثر حرصاً من غيرهم على التقيد بأوامر الشارع الذي نهى عن سباب المسلم ولعنه[٣] . فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «**من لعن**

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، ص (١٤٧) .

(٢) الأخبار الطوال ، ص (١٦٥) نقلاً عن تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢ / ٢٣٢) .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢ / ٢٣٢) .

مؤمناً فهو كقتله»[١]، وقوله ﷺ: «ليس المؤمن بطعان ولا لعان»[٢]، وقوله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[٣]. كما أن الرواية التي جاء فيها لعن أمير المؤمنين في قنوته لمعاوية وأصحابه ولعن معاوية لأمير المؤمنين وابن عباس والحسن والحسين لا تثبت من ناحية السند حيث فيها أبو مخنف لوط بن يحيى الرافضي المحترق الذي لا يوثق في رواياته، كما أن في أصح كتب الشيعة عندهم جاء النهي عن سب الصحابة فقد أنكر علي عليّ من سب معاوية ومن معه فقال: إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر وقلتم مكان سبكم إياهم اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم[٤]. فهذا السب والتكفير لم يكن من هدي علي باعتراف أصح كتاب في نظر الشيعة[٥].

* * *

(١) البخاري، ك الأدب (٧ / ٨٤).
(٢) السلسلة الصحيحة للألباني، رقم (٣٢٠)، صحيح سنن الترمذي (٢ / ١٨٩)، رقم (١١١٠).
(٣) مسلم (٤ / ٢٠٠٦) رقم (٢٥٩٨).
(٤) نهج البلاغة، ص (٣٢٣).
(٥) أصول مذهب الشيعة (٢ / ٩٣٤).